الأيام على مأدبة اللئام

قصة بقلم صلاح عيسى

للمرة السابعة خلال عام واحد ، اقسم صديقي الدكتور مراد انه سوف يغادر البلاد نهائيا ليقيم في الاحراش الافريقية . وكان يردد ذلك وهو يفكر في طريقة ينقذ بها ((ملكه)) الذي حوصر حصارا قاتلا .وعندما نجح في ابعاد الخطر عنه مؤقتا ، تنهد بارتياح وقال ان التخلص من مأزق شيء جميل ، لذلك فسينفذ فكرته في الهجرة الى شرق افريقيا مهما كانت العقبات . وتأملت((الفيل الاسود)) وحسبت كيف يمكن ان أهاجم الملك مرة ثانية دون ان يقتل وزيري ثم همهمت بأن فكرته مغرية الا انني مللت ترديده لها وان عليه ان ((يكش ملكه)) للمرة الثانية. اذ ذاك ابتسم وقطب حاجبيه طويلا . ونادى ((ناهد)) من الداخل وسألها عما اذا كانت البيرة قد تثلجت .. فعادت بعد لحظة بعربة شاي متوسطة تحمل البيرة واطباق المزات .. وبينما استغرقني تأمل موقف الملك الصعب والتفكير في وسيلة لانقاذه من الموت ، كان مراد يشرب في تلذذ ويثرثر ايضا بتدفق شديد . وكان الوباء كالعادة ثرثرتنا اليومية .وقال انه سيضطر الى انشاء معزل ثالث في الطرف الشرقي للمدينة ، ذلك أن الوباء انتشر وتمدد الى مالا نهاية . وسأل ناهد عن رسالة الادوية التي وصلت اخيرا فقالت انها اوشكت على النفاد فشرب كأسه .. وقال :

ـ لا أمل في شيء .. لقد انتهينا .

اطرقت ناهد رأسها الى الارض ، كانت آثار الجروح ما زالت تملأ وجهها ، وتشاغلت بأصلاح ثوبها الابيض المرصع ببقع حمراء كبيرة. وسألت عن ((ناعسه)) فقال :

ـ اختفت .. وهم ينسجون حولها الاساطير ...

وفي تلك السنة كانت ناهد قد اغتصبتني في حجرة الكشف وعلى مائدته الجلدية الباردة . حدث هذا ذات ظهيرة غاب فيها ((مراد)) عن عيادته ، وقفت على الميزان وهي بجواري تقرأ ما يؤشر اليه ، وفي محاولتي للنزول وجدت نفسي في احضانها وهمهمة تمنع تصدر عنها لم اجد مبررا لها . اذ حتى هذه اللحظة لم اكن قد فكرت في الاحتكاك بلحمها الطري . وخلال دقائق محمومة مارست لذة الاحتكاك به وكان لزجا بالعرق ، واسع المسام كدجاجة نتف ريشها ، وكان الشعر ينتشر بين ثدييها في خط طويل ينتهي قبل منتصف البطن ليعود بعد ذلك بقليل في هرم كثيف تتزايد كثافته تدريجيا حتى تتحول ظلاما دامسا، ووجدت نفسي اسبح في بحر من عرقها ثم اهمد تماما . ومنذ ذلك اليوم لم يتكرر ما حدث ، وقد انتظرت في قلق ان تعاود اغتصابها لي ، ولكنها لم تفعل فقتر حماسي لذلك .

وكنت اعرف أنها عشيقة صديقي مراد وممرضته ، فانها تمارس دورا وسطا بين الممرضة والزوجة . وفي جلساتنا الخاصة كان البالطو الابيض يغادر جسدها ليترك مكانه لفستان اخضر ـ واحيانا بيجاما او قميص نوم ـ فتشرف بمهارة على تلبية ما نريده،حريصة على الا تتجاوز وضعها الدقيق فلا تهدم كل الحواجز بيننا وبينها ، ولا نتدنى بها لتصبح خادمة .

وعندما تطفلت يوما على صديقي مراد ، وسألته عن طبيعة العلاقة بينهما اكد انها كائن شيطاني بلا أسرة ، ولا ماض ، والارجح انها غادرت اسرتها في ظروف غامضة لا يعرفها . وأسرّ لي انها اغتصبته رغما عنه في ليلة شتوية مطيرة كان فيها سكرانا وحزينا لسبب ما . وانها تكرر اغتصابها له كلما ارادت فليس له ان يعترض . واكمل وهو يذيب شيئا في كوب شاي امامه :

ـ في بعض الليالي تعذبني الرغبة فيها فلا أجرؤ على الاقتراب منها وانتظر في قلق ان تشير اليّ ، ولكنها لا تفعل .. ولا يبقى امامي اذ ذاك الا الاستعانة بمدد من الخارج .

كانت ناهد أميل الى الاسمرار ، ذات ملامح دقيقة كطفلة ، تبدو من بعيد هادئة ورقيقة . وجسدها في اطاره الخارجي عذري الملامح ، وليس كذلك اذا تأملت تكوينه الداخلي . وفي مرات قلائل ـ خاصة قبل ان يستفحل الوباء ـ رأيتها وهي تحشو سجائرنا بالحشيش،وكانت تفعل ذلك بدربة وتلذذ ، واصابعها النحيلة ذات الاظافر الطويلة الحادة تتحرك بمهارة وخبرة ، ثم تدخن بشراهة ، وتضم شفتيها الدسمتين على السيجارة فتسحب نفسا طويلا تحبسه في صدرها فيذوب ولا يخرج منه الا القليل . ونادرا ما كان الصمت يفارقها ، فتبتسم ابتسامة خفيفة اذا ما سمعت ملحة . وتهز رأسها اذا سمعت نغما . ورفضت بإصرار ذات ليلة ان ترقص ، وتركت اكفنا المصفقة تدق الايقاع دون اجابة . فقلت : ليكن .. ارقص انا . وامسكت لي الواحدة وبرقت عيناها وهما تتابعان جسدي في اهتزازاته السريعة ، منتشيتين لاقصى الحدود برقصي .

وفي تلك السنة شغلنا مراد بحديث متصل عن البلهارسيا ، وقال انه يفكر في طريقة جادة للقضاء عليها . وان فكرة طارئة نبتت في ذهنه وهو يستحم ، أن يوقف حياته على هدف سام ، وان الهدف الذي اختاره ، هو هزيمة البلهارسيا هزيمة ساحقة . واكد انه سيكون مثيرا ان يضع كمية كبيرة من أي مبيد حشري في مجرى النيل ، فتلك هي الوسيلة الوحيدة والسريعة لافناء قواقع البلهارسيا . ولما نبهناه الى ان

ذلك سيقتل الزرع والحيوان والانسان ايضا ، ضحك وقال بجديـــة شديدة ـ رغم ان كلماته كانت مشبعة برائحة الكحول :

ـ البلهارسيا كائن حقير وتافه . فاما ان يعيش الناس حياة قويـة وسليمة والا فلا مبرر للحياة اصلا ..

وقد اعتبرنا المسألة واحدة من فكاهاته التي لا تنتهي رغم انهـا اصبحت مرهقة لنا . اذ اصر على ان يضع في كل مكان من مسكنـه لوحات حجرية مجسمة نطل منها دودة بلهارسيا مقبضة وبشعة المنظر ، وذكرها يحتضن انثاها في بطنه . وفي ليالي السمر كانت تتطفل علينا، نسمع كلماتنا ، تراقب نظراتي المنسولة الى « ناهد » وفي مرة افسمت لهم انها اخرجت لسانها لي . وقد ضحك « الشيخ رضوان » ـ امـام مسجدنا ووأعظه ومقيم شعائره ـ طويلا ، وقال انه كان يتساءل دائمـا عن معنى حرف « الدال » الذي يسبق توقيع مراد ، والان فقط عرف انه اختصار لكلمة دوده . اما « ناهد » فقد دافعت عن الدودة دفاعا حارا . وقالت أن لونها جميل وانها تنصح بان تنتج شركات الاصواف، صوفا بلونها الاصفر الباهت . بيد انها عبرت عن كراهيتها للانثى التي كانت تستقر مستسلمة ببطن ذكرها .

وفي الليلة نفسها هرش الشيخ رضوان مهبط بطنه ـ وكانت تلك احدى عاداته المرذولة ـ وتحدث متفلسفا عن حكمة الله التي خلقت الدنيا من نوعين ، يسعى كلاهما للاخر ، رجالهم قوامون على نسائهم حتـى في دنيا البلهارسيا . سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا . ولولا ان ناهـد عاجلته بغابة الجوزة لاستمر في حديثه الطويل . بيد انه سحب نفسـا عميقا ، واغلق عينه السليمة ـ فالاخرى عمشاء ـ ومضى يبتلعه ببطء، ثم طرد ما بقي منه ـ وكان قليلا ـ واسند رأسه على كفه ، وسبح بحمد الله طويـلا .

وكنا قد دخنّا حتى اكتفينا عندما مضت ناهد الى الداخل،ونادت مراد بصوت وحشي ، فابتسم ابتسامة هزيلة واعتذر لنـا ومضى خلفها ، واذ انفرد بي الشيخ قال :

ـ هذه علامات الساعة ... صاحبتنا تتعشى الان بالدكتور ..

فدعوته الى ان « يكرس » لنا كرسيا ندخنه ففعل ، وقال وهـو يناولني الغابة ان « ناهد » حاولت ان تعتدي على عفافه ، ولكنه قاومها بعنف :

ـ كانت متوحشة ومفترسة . خمشت وجهي بأظافرها الطويلـة الحمراء فاسالت دمائي . مزقت جبتي ، عضتني في كتفي فضغطت على رقبتها . أفلتت مني ، حاولت ان تنال مكمن عفتي ، تمكنت من ذيها الايسر ، عصرته بكل ما في كفي من قوة ، فتهاوت على الارض ، هـزمت تماما .. وبكت .

سألته عما اذا كانت قد قدت ملابسه من قبل ام من دبر فضحك طويلا وقال انها مزقتها جميعا ومن كل اتجاه . فقلت :

ـ محافظتك على عفافك في ايامنا هذه شجاعة نحسد عليها .

شكر الله الذي هداه الى ذلك ، واكد ان جسدها مشعر ، وان الله يبارك في الرجل المشعر ولا يبارك في المرأة المشعرة .

ومن المؤسف حقا انني لم أتابع ما حدث للشيخ رضوان بعد ذلك، اذ كنت ايامها في المستشفى عقب اعتداء وحشي وقع عليّ في الطريق الزراعي ذات سحر . وكنت قد امضيت اغلب الليل أشرح جثة قتيـل على شاطىء الترعة ، واذ انتهيت من عملي تركت مساعدي يبيـت فـي القرية ، وقدت سيارتي وكان الظلام خانقا والطريق خاليا وصامتا كقبر فرعوني . وكنت أتأمل في اعجاب مسير الرصاصة التي اخترقت اتجهه، ولم اجد لها اثرا في قاع الجمجمة ، ولم اجد لها اثرا في اي مكـان اخر من الجسد ، وسلمت القتيل لاهله مجموعة متناثرة من اللحم .

وعندما حاذيت النخل الكثيف في منتصف الطريق وجدت عائقـا يمنع سيارتي من الحركة ، اوقفت المحرك . ولدت الظلمة اشباحا ضخمة ناداني واحد منها باسم لا اعرفه . كان صوته غليظا وعريضا ، ردد الصمت والفراغ صداه المرعب . طلب مني ان اطفىء انوار السيـارة واغادرها . ولم اكد افعل حتى جاء صوته مرة اخرى عريضا كانـــه الفضاء نفسه :

ـ يا ابن الكلب .. تحرّم تتطاول على اسيادك .

ولم اسمع بقية الكلمات ، اذ انهالت عليّ العصي من كل جانب . مؤلمة وبشعة ، تدفق سائل غليظ القوام وحار على وجهي . خفـت، نملكني الرعب ، انحنيت على الارض ، قبلت اقدامهم . توسلت لهـم، بكيت . اغمي عليّ . صحوت لاجدني في المستشفى . وفي تلك اللحظة فقط اكتشفت انني لم اكن المقصود لانني لا احمل الاسم الذي نادوه . كما انه لم يحدث ابدا ان تطاولت على اي من اسيادي ، اذ كنت اتوهم ـ حتى تلك اللحظة ـ انني بلا اسياد على الاطلاق . وقد ثبت فيما تـلا ذلك من سنوات أن هذا وهم خاطىء دفعت ثمنه الكثير .

وفي المستشفى زارني الشيخ رضوان ، ودعا لي طويلا ، وفـسرا آياته وتعاويذه ، فقلت له :

ـ أنا حزين يامولانا ، العار يجللني في كل مكان .. انني دهش : كيف لم اقاومهم ؟ لماذا بكيت وقبلت اقدامهم ؟

بسمل واستغفر طويلا ثم قال :

ـ أبشر ، سوف تتغير الدنيا . بهذا أنبأني هاتف زارني في المنام.

وأقسم ان هاتفه بشره بانه مدخر لرسالة عظمى ، لا تقل عظمـة عن رسالة « المسيح الدجال » وانه تمهيدا لذلك قد رفعت عنه كـل التكاليف ، ومن اليوم فلا يخجل من شيء ، ولا يخاف من أحد .

ومضى فغاب طويلا ، وسألت ناهد عنه فابتسمت ابتسامة ذات معنى . وأكد مراد انه لن يأتي ، وقد لا نراه بقية العمر ، فقـد لزم بيته ولم يعد يؤم الصلاة في مسجد مدينتنا الصغير ولم يعـد كذلـك يؤذن او يلقي العظات ، ذلك انه ضبط ذات فجر يحاول ان يلوط غلاما صغيرا في الدور الثالث من مئذنة المسجد ، وصرخ الغـلام واختلفت الرواة فيما اذا كانت صرخته استغاثة او نشوة ـ فتدافع الرجال الذين كانوا يستعدون لصلاة الفجر ، وفرقوا بينهما ، وضربوا الشيخ والغلام ومزقوا عمامه الاول وكاكولته وحتى فطائه ، ورفضوا ان يتركوا لـه ملابسه فسار شبه عار من المسجد الى منزله ، فلزمه صامتا وحزينا . وقيل ـ نقلا عن غلام أمرد يعمل عنده ـ انه يفكر في الهجرة الى بـلاد الانجليز التي اباحت اللواط ـ كما قرأ في الصحف ـ وقد اتضح بعـد ذلك ان تلك كلها اشاعات وأن الشيخ لم يفكر في الهجرة . بل كـان ينتظر في قلق هاتفه . وكنت أتطع وقت المرض الطويل بالمستشفى في قراءة تقرير عن حالة الامن العام في مدينتنا ، وقال التقرير ان هنـاك زيادة ضخمة في عدد جنايات الاعتداء على الاشخاص ، بلغت ٣٥٧ حالـة خلال الشهور الستة الاولى من العام ، وان هـذه الحوادث تشمـل الضرب الذي يفضي الى موت والقتل العمد . هذا فضلا عن حـوالي مئة جناية هتك عرض واغتصاب بالقوة أدى بعضها الى موت الضحايـا أثناء المقاومة . وقلت لنفسي أنني سأزيد الارقام واحدا في العام القادم. وأن ما حدث لي بكل بشاعته سيصبح في النهاية مجرد رقم بارد مـن تلك الارقام الغريبة .

وكذّب حضور الشيخ رضوان لزيارتي ـ مرة ثانية ـ كل ما قيل عنه وكان يومها هادئا ونظيفا جدا ، وسألته عن هاتفه فقال انه زاره ،وحاوره طويلا .. ثم قال له في النهاية :

ـ ليكن شعارك أن كـل الانسان على الانسان حلال : عرضـه ، وماله ، ودمه .

وعندما خرجت من المستشفى كان الوباء في بداياته الاولى.وزرت مراد في معمله فوجدته يحلل بعض العينات امام ميكروسكوب عتيـق، والقيظ قد تركنا نصف موتى ، جلست على مقعد معدني شعرت براحة لرطوبته . قال :

ـ ظاهرة غريبة . العينات كلها سلبية حتى الان . والمشكلة ان

« ناعسه » ترفض ان نعطينا اي عينات .

وكان الوباء قد بدا في عزبة على اطراف مدينتنا ثم انتشر . كانت الاعراض واحدة . وربما في الحالة الاولى فقط بدا الامر غريبا اذ اصر العريس ـ واظن ان اسمه كان « ايوب » ـ الا يفض بكارة زوجته. ورفض المنديل الذي قدمه له ابوها طالبا منه ان يرده حاملا الدليل على ان ابنته صانت عرضها واحتفظت بعذريتها سليمة . وفي اللحظة نفسها كانت العروس ـ واسمها على سبيل القطع ناعسة ـ تطرد الداية وام العريس واخواته ، ويرفض ان تخلع ملابسها ، او ان يحضر احد لحظة لقائها بزوجها . وعندما حاولت الداية وام العريس ان توثقاها لكي تؤديا مهمتهما تشاجرت معهما وعضت الاولى في عجيزتها . اذ ذاك ضرب أبوها العريس وأمره اخوالها ان يفعل كفيره من العرسان فرفض بشدة ، وقال انه سيدخل بها في اي وقت يشاء ، ولطمت أمها وولولت في الداخل ، وحلت شعرها . وانهالت العصي عليه من كل مكان ، وتحطمت مصادر الضوء كلها ، وفي الظلام الدامس اطلق مجهولون الرصاص ، وخلت ساحة الحفل ، وارتفعت اصوات النساء ـ التي كانت تزغرد قبل لحظات ـ تصرخ في رعب قاتل ، ولطخت الدماء التي سالت كنافورة قطعا كثيرة من أثاث العرس .

وفي السحر حملت الينا الاسعاف « ايوب » مصابا بجرح عميق في رأسه وبكسور في ذراعيه وساقيه . وتفاقمت حالته في اليوم التالي واصيب بحمى حادة ولم يكد يتحسن قليلا حتى اصبح يطرد كل مافي جوفه . وتدهورت صحته بشكل مرعب ، ورأيتها واقفة على باب حجرته، فلقة وحائرة . ولكن وجهها الاسمر لم يفقد حمرته في اي لحظة ، كذلك فشلت ملابسها المحتشمة ان تخفي قسمات جسدها المنسقة . كان كل جزء منه يقود الى الاخر بشكل تلقائي . بحيث لم استطع في كل مرة اواجهها الا ان اتفرس في كل قسماته : وكانت عيناها صافيتين ثابتتين ، لا تطرفان ابدا مهما حدقت فيهما ، وفي مرة اجتذبني صدرها، كان خصبا كأرض براح ، وقلت لنفسي ان اطفال العالم سيسعدون لاشك عندما ينامون فوق هذه الخصوبة الواسعة الدافئة ...

وبعد شهور من شفائه عاد الينا ، ورأيته يومها : شاحبا ضعيف النظرات ، خجولا . وكان شاربه قد تهدل . وشكا في كلماته متقطعا انه لا يستطيع ان يؤدي واجبه كزوج . وانه في اللحظة التي يشعر فيها انه في اقصى لحظات توهجه والتي تنتظرها زوجته في عطش محموم في تلك اللحظة يشعر بألم شديد في مؤخرة رأسه ، وكأن آلافا من العصي الغليظة تنهال فوقه ، ومع الالم الحاد تختفي حماسته تماما ، ويرقص منهارا كخرقة قديمة بجوارها .. وضحك مراد ضحكة عالية وهو يروي الحكاية لنا في المساء ، وقال أن العالم يتفنن في اكتشاف المثيرات ليخفى عجزه الدفين .

بيد ان الشهور التالية حملت الينا الابعاد الكاملة للخطر الذي تعرضت له مدينتنا والذي كان خطرا حقيقيا . اذ بدأت الحالات تتزايد، وظهر ان المرض كامن كالفجيعة وان ستارا من الخجل كان يحول بين الرجال وبين التعبير عن الكارثة التي اودت برجولتهم . وقد تأملت طابورهم الطويل اليائس والخجول سواء في ردهة المستشفى الطويلة ، أو في حجرة الانتظار بعيادة مراد . وكانوا خليطا لا يجمعه شيء، معممين ومطربشين وعراة الرؤوس ، وحالقي الشعور تماما ، وعدد من شباب الهيبز بشعورهم الطويلة وسوالفهم النسائية ، وقد تأملتهم ناهد بنظرة يطل منها الافتراس لم تدم اذ ادركها الفتور وخيبة الامل سريعا. وكانوا دوما قلقين يدخنون بشراهة وينوهج اطراف لفائفهم حتى لتحدث فرقعة خفيفة ، والغريب ان نظراتهم كانت لا تستقر على شيء ولم تكن عيون أي منهم تلتقي بعيون غيره . اذ شغلت كلها بتأمل ديدان البلهارسيا التي ملأت الحوائط في تشكيلات هندسية معقدة . وبدا من تأملهم لها انهم معجبون بها .

وفي مرات ليست كثيرة ، جاءت نساء ، سألن مراد ان يكتب لازواجهن ادوية مقوية ومعيدة للشباب وباعثة على الحيوية . وقلن ان ازواجهن يخجلن من الذهاب الى الطبيب وانهن يفضلن ان يكون الدواء في شكل مسحوق حتى يسهل عليهن ان يدسسنه في طعام او في شراب دون ان يضطررن الى الاعتراف لازواجهن بأنهن لجأن للطبيب . وكان مراد يضحك في سره وهو يطلب منهن ان يصعدن الى منضدة الكشف حيث يتيح ليده فرصة ملامسة اجسادهن وتأملها ليقول لي في النهاية:

ـ تصور هذه الاجساد الجميلة لو ظلت هكذا عطشى ، ان كارثة قومية في الطريق .

ويبدو ان توقعه كان صحيحا ، اذ ظهر الشيخ رضوان فجأة ذات مساء ، واعلن انه انهى اعتكافه بعدما وصلته انباء الوباء . وترحم على ايام الكوليرا والملاريا، واستعاذ بالله من شر النفوس السيئة ، ومن كذب اللسان الذي دفع البعض الى اتهامه بانه عاد الى ممارسة هوايته القديمة في الاستعانة بالاحجبة والتعاويذ لسلب الرجال قدرتهم على الاخصاب ،واقسم قسما مغلظا بانه تاب عن ذلك توبة نصوحا.وانه مزق الكتب والاحجبة كلها بل انه حاول ان يعود اليها ليستعين بها في دفع البلاء الذي عم مدينتنا فلم يجدها . ثم سكت طويلا فسألته «ناهد» عن هاتفه ، وماذا فعل معه .

ـ الظاهر انه هاتف ابن اونطه ، مضى ولم يعد .

وضحك ضحكة قصيرة واستمر :

ـ عندما يخلو فراش الرجل من ضجيعه ، او تكون الغبارة رديئة فانه يفكر عادة في ان يكون نبيا ، وذلك في ظني ما دفع صديقنا الدوده الى الاهتمام بحكاية البلهارسيا .

ضحكنا ، قهقهت بطن الشيخ في تموجات ، واكتشفت لحظتها انه ينتمي بشكل مباشر الى جد من القردة العليا ، كان وجهه مجدورا، وانفه ضخما ككرة صغيرة مليئة بالحفر . وتوقف الضحك وقلت جادا :

ـ ولكنك يا مولانا كنت متحمسا لدعوتك ، وهي دعوة جديدة بالفعل ..

شد نفسا طويلا جدا وازدرده .. قال :

ـ راجعت بعض الصحف فوجدت انها دعوة قديمة جدا ..

وضع مسبحته بجوار الاناء الذي حمل جمرات النار ، ومضى يتحدث عن فضائل « الغبارة الهندية » فقال انها تنشط الجسد الخامد، وتوقظ الرغبة الهامدة وانها مدرة للنسل وقاتلة للكدر . واقترح ان نكف عن التدخين في الجوزة والسجائر . وان نضع « الغبارة » كلها فوق النار ونغلق النوافذ فنستنشق هواء كله خدر . وتحمست «ناهد» للاقتراح واعترض مراد مؤكدا ان هذا قد يودي بنا ويقتلنا ..

وقطعت الحديث لالفت نظرهم الى صورة غريبه وجدتها في جريدتي وكانت الصورة لامرأة فيتنامية قتلت اثر غارة ، ويبدو انها كانت تستحم في جدول صغير تاركة طفلتها على شاطئه فأصابتها الشظايا في مقتل ، وكانت الصورة لها وهي عارية تماما ، ميتة ، والطفلة الصغيرة قد تحركت نحو جثتها بعدما قرصها الجوع ، فالتهمت حلمتها واخذت ترضع من ثديها الميت . وقلت لهم :

ـ ما رأيكم يا اصدقاء في هذه الصورة المعبرة ؟

قال مراد ان جسد المرأة نموذج انثوي رائع ، واخرج نظارته الطبية لكي يتأكد من ان ما قاله مطابق للواقع . وتغزلت بشعرها الاسود الطويل ، وكان مبللا بالماء ، يحيط بوجهها كشعار الحداد . بينما لفتت ناهد نظرنا الى الشظية التي اصابت المرأة في منتصف بطنها .. وقال الشيخ رضوان :

ـ هذا انتهاك لحرمة الموت . والصورة فوق هذا مثيرة للغرائز الدنيئة ..

ضحكت ناهد ضحكة طويلة ـ وكانت تثرثر بكثرة وتلك حالة نادرة ـ قالت :

ـ ولكن لا تنس يا مولانا ان الغرائز الدنيئة قد ماتت ، وحتى

لو كانت حية فان ظهر المراة لم يظهر !!!

وانفجرنا ضاحكين ، حتى الشيخ رضوان نفسه قهقه مداريا خجله . وقلت مغيرا الحديث

ـ الحقيقة ان الرصاصة هي اوقع ما في الصورة . ماتت الطفلة لا شك ، ولم يحن الثدي عليها بقطرة لبن واحدة .

وقال مراد ان هذا سيحدث في مدينتنا ، وان الوباء سيقضي علينا تماما ، وانه يقدر لعمر المدينة ثلاثين عاما اخرى ، كحد اقصى يموت في نهايتها اصغر الرجال وبعدها نتركها خرابا يبابا وقد احترق فيها الحرث والنسل . ودعانا الى ان نحزن مثله حزنا عميقا لا حد له ، وليكن حزننا جليلا ككارثتنا ، فنعيش الحياة بكل ثانية فيها لا نضن بشيء .. بيد انه اكمل فكرته بتوضيح اكثر ـ عقب عودته من الداخل هو وناهد ، فقال :

ـ هذا بالطبع اذا كنا ما نزال نملك القدرة على ذلك !

وخلال غيبتهما بالداخل ، تذكرت انا والشيخ رضوان ، المخازي التي تحدث في شوارع المدينة ، فقال ان النساء خرجن الى الشوارع يحرضن الرجال على الفجور وان احدا لم يهتم بهن وان ثلاثا من النساء الفضليات ـ احداهن زوجة شيخ وقور يعرفه ـ قد اختطفن شابا صغير السن من زقاق ضيق ومظلم وخلعن عنه ملابسه ، واجبرنه ان يواقعهن ولكنه عجز عن ذلك فكدن ان يقتلنه وان الموضوع الان في يد مامور المركز للتحقيق فيه ، وقد يصل الى الجهات العليا في العاصمة . وقلت ان ثلاث حالات انتحار جديدة قد حدثت اليوم في المعزل الجنوبي ، اذ اشعل الرجال النار في ملابسهم ومات منهم واحد .

وبينما كنا نتابع بحث الموضوع انا ومراد ، ونحلل الاف العينات ، كانت صحف العاصمة قد لزمت الصمت ، اذ كانت مشغولة اذ ذاك بوصول الانسان الى اقرب ما يمكن من كوكب القمر . اما صحيفتنا المحلية فقد ملأت صفحاتها الاربع بالاخبار والدراسات عن الوباء ، ونشر احد العلماء مقالا بتوقيع « اقتصادي » قال فيه ان الوجه المضيء للكارثة التي حلت بنا هو تزايد امكانية الادخار بالتوفير في بعض ابواب الميزانية . فطالب بالغاء شرطة الاداب ومكاتب السجل المدني ، ومصانع اللوالب ومصنعي حبوب منع الحمل . واجرى رئيس تحريرها حديثا مع « ناعسه دياب » المراة التي اصيب زوجها بالمرض لاول مرة عن اعراضه، وقد رفضت ناعسه ان تجيب على الاسئله او تدلي باي بيانات ، واحتجت على مصادرة حرية زوجها في المعزل الشرقي ، وقالت ان الاطباء جميعا كلاب ولا يفهمون شيئا ، وان زوجها ليس مريضا ، وانه كامل الرجولة ، وانها لهذا كله ترفض ان تقدم اي عينة من افرازاتها لتحليلها ولن تقبل ذلك مهما حدث .

وفي الاسبوع الثامن لظهور الوباء خرجت مظاهرة من نقطة المومسات ، وكانت تقع شرق المدينة على مقربة من اول معزل انشاناه . وقد توجهن في البداية الى مسجد المدينة ثم الى الكنيسة فصلين شكرا لله الذي تاب عليهن الى الابد ومحا عنهن الذلة والمسكنة . وخلعن زيهن الرسمي ـ بلوزة حمراء وجيب اسود ـ وارتدين ملابس بيضاء غير مخيطة ، واتخذن قرارا ان يحججن الى مكة وبيت المقدس في العام القادم . ثم هتفن في مسيرة كبرى بسقوط سياسة البطالة ، مطالبين بتدبير اعمال لهن ، وعندما حاول مامور المركز ان يقف فيهن خطيبا رددن عليه باصوات رديئة تصدر عادة عندما يمر شهيق انفي طويل ، وطرف اللسان ملتصق بسقف الحلق . وعقب ذلك اصطدمت المتظاهرات برجال الشرطة وتسلحن بالطوب وامر المامور جنوده بتفريقهن ايا كان الثمن . وقد استخدم الجنود في ذلك احزمتهم الجلدية السميكة مما احدث اصابات بالغة في رجال الشرطة وفي المتظاهرات . وقتلت مومس صغيرة في السن تدعى « سميره محمود السيد » قالت صحيفتنا المحلية انها كانت طالبة بالمدرسة الاعدادية قبل عام واحد .

واصبح مالوفا في مدينتنا ذلك التجمع الضخم من النساء الذي كان يلتف حول اي معزل من المعازل الثلاثة التي انشاناها في المدينة . كان سواده عميقا كليلة محاقية ، وخلاله فشلت العين في ان ترى شيئا سوى الكارثه ، وهو ما اهتززنا له حقيقة انا ومراد والعشرات غيرنا من الذين كانوا يحاولون ايقاف الكارثة باي شكل . لذلك انقبض القلب حزنا وياسا ، وفشلت لفائفنا المخدرة في ان توقف احساسنا المرير بالخزي ،وكنت اشق لنفسي طريقا بين سوادهن الحزين ،مطرق الراس خجولا ، واصابعهن تشير اليّ . فاذا ما ذهبت الى المعزل الشرقي كنت اواجه دائما بها : كانت تجلس فوق قمة عالية ، وحيدة ، مرتفعة الراس دائما ، تستند بذقنها على كفها . واكتشفت من طول تاملها ان شعرها طويل ، تطلقه في ضفيرتين ضخمتين طويلتين ، وان عينيها خضروان رغم انها سمراء وانها تشع دفئا حنونا على البعد .... وكثيرا ما كانت تعترض طريقي وتطالبني بلهجة حادة ان اطلق سراح زوجها ، وكنت رغم حدة لهجتها احاول ان اقنعها بان تساعدنا في التوصل الى اسباب الوباء . ومرة وضعت يدي على كتفها ، فنظرت اليّ نظرة سكينية حادة ، فرفعتها بسرعة ، ولكن هذا لم يمنعني بعد ذلك بايام ـ وكانت قد أحدثت ضجة على باب المعزل فادخلوها لي ـ من ان اقول لها .

ـ لا فائدة يا ناعسة ، سأسمح لك ان تريه استثناء لما ناخذه من اجراءات وقائية .. لكن خروجه من المعزل مستحيل ....

ثبتت عينيها في عينيّ لحظة وقالت :

ـ لن تفلحوا في شيء ..

ضحكت ، سألتها بدعابة :

ـ شعرك جميل ، فلماذا لا تبيعينه لكي يشفى ايوب العليل ؟!

استدارت بحدة وغابت عني ..

وقال لي رئيس تحرير صحيفتنا الاسبوعية ، قبل ان ينصرف ان وكالات الانباء قد طيرت الخبر الى انحاء الدنيا وان دولا صديقة واخرى محايده أبدت استعدادها لتقديم أية معونة ممكنة وان صحيفة عالمية نشرت نداء لمن يريد التطوع من الرجال كاملي الذكورة ، لانقاذ مدينتنا من الانهيار الكامل . وفي الخيمة الكبرى وجدت مراد شبه عار من الحرارة الشديدة ، واشعل لفافته وهو يسمع انبائي .. قال :

ـ امر محزن .. ولكن لا امل ..

وضحكت ناهد ضحكة لم استطع ان افهم معناها بالضبط ، وخرجت بعد ان استشارت مراد في مقدار الجرعة التي تقدمها لمريض ذكرت اسمه .. ومضى وقت لم استطع تحديده بيد انه كان كافيا لان استعرض العدد الضخم من الخيام الذي توزع فيه مرضانا ، وتأمل وجوههم اليائسة المجدبة ، وان انظر للامر برؤية صوفية بحتة انتهيت منها الى ان هذا امتحان من الله لمحبيه وعاشقيه ، وانها منحة في صورة محنة ، وقبل ان افضي لمراد بخواطري سمعنا ضجة كبيرة في الخيمة التي امامنا وصراخا حادا ميزنا فيه صوت ناهد .

توقفت خطواتنا المسرعة على باب الخيمة . شاب هزيل شبه عار ، ناهد عارية تماما ، الدم يتدفق كنافورة من بين فخذيه ، شفرة حادة في يده وهو مستمر في تمزيق خصيتيه وما فوقهما بحدة جنونية ، وبدا ان محاولات ناهد لا بقافه قد اصابتها باكثر من جرح في وجهها وفخذيها، وايضا في صدرها .... وعندما تمكنا من شل حركته نظر الينا وكان البياض في عينيه قد ابتلع سوادهما تماما ، وبصق على ناهد التي كانت منحنية تبكي في انهيار . صرخ .

ـ كلاب .. كلاب ..

وقبيل مساء اليوم التالي كان قد مات وسلمنا جثته لزوجته التي كانت تقف امام المعزل ، وولولت النساء المنتظرات في جنون وامتلأ الافق سوادا خانقا ، وخرجت جنازته من المعزل الى مقابر مدينتنا ووراءها سواد نسوي حاد ..

وكان صدى الاصوات المولولة يأتيني في شرفة العيادة ، عندما افاقت ناهد ، كانت اثار حقنها بالمورفين تبدو في وجهها خمولا . كانت عيناها منتفختين ولونها باهتا شديد الاصفرار . وكنا في الغرفة نفسها التي نسهر فيها عادة ، ومراد اذ ذاك في المركز يدلي بشهادته في حادث الانتحار :

ـ انت بخير ؟!

ـ نعم .. ماذا حدث ؟.

وضعت وسادة خلفها لاساعدها على الجلوس . قلت :

ـ لا شيء .. حادث عادي .. كثير من المرضى يفقدون الامل في الشفاء فينتحرون !!

ابتسمت ابتسامة شاحبة :

ـ انا المسؤولة عما حدث

اطرقت صامتا ولم اعلق ... استمرت :

ـ ظننت انني استطيع ان انجح فيما فشل فيه الجميع . حاولت معه ، وكنت على وشك ان انجح ، ولكن لا ادري ما حدث بعد ذلك .

صببت لها كاسا وقلت :

ـ لقد أخطأت .. كل الذي فعلته ان زدت لديه الاحساس بالعجز !

بكت في صمت فوق وسادتها .. ولم اجسر على الكلام . وقلت لنفسي ان احساسها بالهزيمة حاد ، وان فشلها كان علنا وعلى مرأى من الجميع كفشلنا بالضبط . فمتى ينتهي كل هذا ؟ تحسست وجهي أبحث عن آثار جروح فلم اجد ، بيد ان آلاما كانت تنتشر فيه . وعبر الشرفة بدت المدينة مظلمة ، وولولة النساء تأتي من بعيد كصلوات جنائزية . وفي الظلام افتقدت حركة مدينتنا الصاخبة ، واضواء الافراح والزغاريد واصوات الغناء والضحكات الصافية وضجة اطفال المدارس . وتساءلت في عجب عما حدث فاجأني في الظلمة انينها الخافت كجريح في نزعه الاخير ، وللحظة تصورت انها يمكن ان تموت فداخلني اشفاق حاد عليها . نسمة بريئة بلا اهل ولا ماض . من اين انحدرت والى اين تنتهي ؟. وها هي وحيدة تجتر آلام الهزيمة كما تجترها مدينتنا المظلمة المهدة بالخراب . وجاءني صوتها من الداخل :

ـ أمات ؟.

أومأت برأسي صامتا ، وقلت مواسيا :

ـ لا تزيدي من آلامك ، مات كثيرون في الايام الاخيرة ..

هزت رأسها في يأس :

ـ نعم .. مات هو ، وانتحر غيره ، وقتلت مومس في الظاهرة ..!

ـ هذا غير ما اصابني في الليلة المظلمة على الطريق الزراعي ، ولا تنسى المرأة الفتنامية وطفلتها .

تأملت الكلمة بعد ان قلتها ، بدت غريبة ، تفجرت في صدري رغبة عارمة في الترويح ، بيد انني لم افكر لحظة في جسدها ، رغم انه كان شبه عار امامي ، اذ بدت مطحونة ومهشمة ، وقد احمر انفها الصغير من البكاء ..

ومع الانفاس الاولى من الجوزة خف التوتر وظل يخف تدريجيا . وتذكرت اللحظة التي اغتصبتني فيها فبدت لي ممتعة . وضحكت ضحكة قصيرة ، فسالتني عما يضحكني :

ـ الشيخ رضوان ، وجد في الوباء فرصة للكسب ، وهو يبيع التعاويذ لاهالي المرضى وامس جاءت جماعته تطلب علاجا له ..

ابتسمت ابتسامة شاحبة ، وقالت ان الامها خفت قليلا ، ولكن مراد تاخر ، طمأنتها عليه . استمرت :

ـ رضوان نذل كأخي الكبير بالضبط وهما سمّان ..

تساءلت عما يخفي هذا الصدر الصغير من اسرار واحزان ، بيد ان الفكرة طارت مع نفس طويل من انفاس الجوزة .

ـ لماذا لا تعودين لاهلك ؟.

ـ انقطع ما بيني وبينهم وانا صبية .

ـ في الجوزة عزاء للجميع ، ولكن الانسان لا يستغني عن اهله ..

وهي تشبح بيدها :

ـ مجرد كلام ... اعرف صديقة لي تعرضت للاغتصاب وهي طفلة ، وكان المجرم واحدا من اهلها ..

ـ قريبها ؟ غريبة .. وماذا فعلت ؟

كرست كرسيا ثانيا :

ـ هربت منهم .. ولم تعد البهم ابدا ...

بعد لحظات صمت ، اكملت :

ـ خفت آلامي الآن .. كان الدم يتدفق من جسده كنافورة ، ولوث كل مكان في جسمي .. هل بللتموني بالماء بعدها ؟

ـ نعم .

دارت الجوزة دورة جديدة ، قلت لنفسي انني متعب ومرهق ولن استطيع حتى ان اقوم لارتمي بجوارها على السرير والافضل ان انام حيث انا .. دار المفتاح في القفل . القى مراد نفسه على المقعد بصمت طويلا ، قال وهو يشد نفسا :

ـ كارثة جديدة .. « البنت ناعسه » .

ـ مالها ؟

وهو يرفز ضيقه في الهواء :

ـ هربت زوجها من المعزل ، وفشلنا في العثور عليهما ..

لفنا صمت .. كانت النار تخبو في الاناء .

كان الملك ما يزال في مأزقه الصعب ، اما ناهد فكانت قد غيرت ملابسها وارتدت بيجاما صيفية خفيفة . استندت على حافة الشرفة تاركة ظهرها امام بصري المنهك ...

انهى مراد ثرثرته وتباعد عن رقعة الشطرنج قال :

ـ فالمشكلة امامي الان ، هي درجة تركيز المبيد في المياه ، ولو وصلت الى درجة تقتل البلهارسيا ولا تقتل الانسان لنجحت ..

استدارت ناهد ، وضعت كوب البيرة الفارغ على المنضدة . انتهيت من تفكيري ، فلخصته قائلا :

ـ لا امل امام كلينا ، لن ننتصر ، ولن ننتصر .. هزمنا معا .. هل تلعب دورا آخر ؟.

ضم شفتيه رافضا واستمر :

ـ هذا جميل .. لذلك سأسافر الى شرق افريقيا .. وسآخذ ناهد معي .

ضحكت ، قلت :

ـ من الافضل فعلا ان نعود الى الغابة .

ضحكت ناهد وارتفعت ضحكتي عالية اكثر مما يتطلب الموقف . في معدتي زغردت اشياء ، رطوبة مخدرة في حجابي الحاجز ، امـا الراس فكان يلتقط الصور بسرعة الف صورة في الثانية ، اكملت :

ـ ما احلى ان يتحول الانسان اسدا ، او ثورا ، أما ناهد فمن الممكن ان تصبح .... (!!)

نظرت اليّ نظرة مخدرة ، قالت :

ـ حاسب ، لسانك حصانك ...!

لم تكمل الكلمة ، سمعت ضجيجا شديدا . انطلقت الزغاريد عارمة من كل مكان وقفت ، تأملت من الشرفة ، مراد : ماذا تفعل يا اخانا ؟. « الضجة ، الا تسمع ؟. » لا اسمع شيئا . ناهد : الضجة في رأسك فقط . « ارهفا السمع جيدا » . آذاننا تسمع دبة النملة . « اصمتا اذن حتى اسمع » . وهل تكلمنا يا عم . « انتما اصمان ، فهل انتما اعميان ايضا ؟. الا تريان هذا الزحام الشديد في نهاية الشارع ». سلامة النظر يا دكتور ولكن هذا دخان مدخنة مصنع المبيدات الحشرية . ناهد ضاحكة : البيرة مخلوطة بمسحوق الهلوسة الامريكي . مراد : رأى اناس العذراء فوق كنيسة الزيتون فليس عجبا ان ترى مظاهرة وهمية « اصمتا » . ماذا جرى لك . « انهم يتكلمون .. يغنون .. اسمع غناءهم » (الله . الله) بلدنا لا تغني ولكنها تواول فقط . والمظاهرات ممنوعة لظروف الطوارىء ، هكذا قال المأمور للمومسات . ناهد : لذلك استحق ان يجبنه باصواتهن الانفية البذيئة . « دعوني اسمع » . يبدو ان الضربات التي اخذتها على رأسك قد اثرت على قواك العقلية . « يا مجانين كيف لا تسمعون كل هذا » . يا سكران .. كيف تسكر من اربع زجاجات بيرة . ناهد : وغمزته ايضا بنصف طحنة خفية . «وهذا الغناء » ؟. ماذا يقول الغناء يا دكتور هلوسة ؟. « ناهسة حبلت فيولد. الله » ناهد : غني لنا كما يغنون فصوتك جميل . « تهزلين ؟. » لا اهزل نمت مع عشرات الرجال ولم أحبل مرة واحدة . فكيف تحبل ناعسة من رجل واحد ؟ مراد : هذه اشاعة اطلقها العوام لمحاربة العلم والطب. اصابتك عدوى الاساطير . الا تكفينا ناعسة واحدة حتى يصدعونا باخرى « انا تعبان مرهق .. هواء .. اريد هواء .. »

القاهرة ـ ٥ يونيو ١٩٦٩

صلاح عيسى